

رسالة المربي

« ظهور المدرسة ، الطريقة النفسية والمنطقية ، التقاليد »

للأستاذ كمال السيد درويش

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

لقد عرف الإنسان الطريقة النفسية أولاً وعمل بها ثم انتقل

قلت :

— لا شك في أن الإيمان سر من الأسرار المستقرة في القلوب ، ولكن أثره الطيب يظهر في الخارج ظهوراً جلياً ؛ فإن العمل بمقتضى الإيمان غير العمل بمقتضى الكفران ، والسير في طريق الطاعة غير السير في طريق العصيان...

ومن الذنوب ما يفتر ومنها ما لا يفتر ، وأقربها من المغفرة أبعداها عن الإصرار . والصالحات الظاهرية المشوبة بالرياء لا تنفع عند الله ولا عند الناس ، بل لا يصح أن يسمي صالحاً ما ليس خالصاً ، فإن الرياء إذا اختلط بعمل حبط ، وذهبت الحكمة التي من أجلها شرع ، ولنضرب لذلك مثل الذي يعطى فقيراً ثوباً مكتوباً عليه تلك العبارة : « صدقة من فلان إلى فلان ! »

فإذا كان المقصود من التوب هو السر ، فكيف يجمع ذلك الذي زعم أنه يحسن بين السر والفضيحة ، فيكسو العاري بثوب ، ويجرده في الوقت ذاته بمنه وأذاه ؟

الإيمان في القلب ، ومن السهل استشفافه من آثاره الطيبة الدالة عليه فمن آمن عمل بمقتضى إيمانه ، وسبقت نيته الطيبة عمله الطيب ، فأنى بالخير لأنه خير وكفى ؛ لا ابتغاء للظهور بمظاهر الورع والصلاح

وليس اجتناب المأسي دليلاً على اليأس من رحمة الله ، كأن رحمة سبحانه ليست وقفاً على الطائمين وحدهم ، وإنما تشمل العصاة التوايين الذين يرجعون إليه ربهم وإلى أنفسهم نادمين ، ولم يؤيدوا العصيان بالإصرار

هنا مبرر

إلى العمل بالطريقة المنطقية . والواقع أنه منذ أن نشأت المدرسة كمرشد على متخصصين في تربية النشء ، بدأ سلطان الطريقة المنطقية وأخذ يزداد حتى أصبحت في النهاية شبيهاً غفياً جامعاً على صدور الأطفال الأبرياء . وقد استطاعت هذه الطريقة فرض ديكتاتوريتها على التلاميذ ولا تزال حتى اليوم . لذلك يمكن القول أن الملة الأساسية في فساد نظم التربية حالياً في جميع ميادينها المختلفة ، سواء في المدرسة أو الأسرة أو المجتمع نفسه ؛ إن هي إلا في العمل بتلك الطريقة المنطقية . وإذا كان الأمر كذلك فما الذي يدعو إلى التمسك بها والخضوع لغيرها ؟ الواقع أن السبب الحقيقي الذي دعا إلى الاعتماد عليها هو ما نمتاز به من سرعة وسهولة . لقد جرب المربي في حياته واستخلص واستنتج ثم رتب خلاصة تجاربه خلال حياته في شكل نتائج وقوانين ونصائح وأخلاق وحكم وأمثال . فأسهل تلقين ذلك كله للناشئين وحشهم على العمل بها ؛ سواء أرادوا أم لم يريدوا ، قبلوا أم رفضوا ؛ فهموا أم لم يفهموا . إننا المهم أن يحفظوا بمقولهم الناشئة هذه الحكم القيمة والمعلومات النادرة والأمثال السائرة . وكيف لا تكون قيمة نادرة وقد بذلنا كل مرتخص وغال في سبيل الحصول عليها ؛ لذلك يجب على هؤلاء الناشئين أن ينصاعوا صاغرين وإلا فهم شياطين خاسرة لم تنكتب لهم الهداية ولم يقدر لهم التوفيق . وإذا ضرب أحدهم بتقاليدنا ونصائحنا عرض الحائط . إذا نأى عنها وأعرض بجانبيه سلقناه بألسنة حداد واعتبرناه خارجاً على التقاليد ، تقاليد الآباء والأجداد . ومارقا كافراً ملحدًا يستحق اللعنة ويختلف ألوان المذاب

تلك هي أول مساوئ الطريقة المنطقية . هي أنها تخلق تقاليد مهيمنة لها حرمتها وقديسيها ولا يمكن للساس بها . وهنا يحق لنا أن نسأل ، وما هو الضرر في تقديس التقاليد ؟ وفي الخضوع لها ؟ ولم لا يكون في التقديس والطاعة ما يرغب فيه ؟ ! يجرنا ذلك إلى سؤال آخر : ولكن ما هي التقاليد ؟ ! نحن نرى بالتقاليد تلك التعاليم التي كانت لدى الإنسان الأول ، والتي لازمت المجتمعات الإنسانية منذ أن ظهرت على سطح الأرض ، والتي

ما دامت التقاليد في حد ذاتها خلاصة الخبرة السابقة للمجتمع
الإنساني مصوغة في قالب التقاليد لتسهيل المحافظة عليها وفرض
الطاعة لها ؟

الواقع أن التقاليد إذا كانت تحتوي على خير كثير فإنها
تحمل في طواياها من الشر أضغاث ما تحمله من الخير . ولكن
من أين جاء ذلك الشر الذي ترى به التقاليد ؟ الواقع أن الضرر
الناجم عن التقاليد يرجع إلى طريقة تعليمها . . . إلى فرضها على
الناس مجردة عن الخبرة الحية التي توضح الشر في قيامها والفرص
من وجودها والظروف التي نشأت فيها ؛ إلى فرضها منطقيا على
الأفراد الجدد في المجتمع ، هؤلاء الذين لا يدركون من أمرهم
ولا من أمر مجتمعهم شيئا . كن كريما . هذا صوت المجتمع يأمره
فقلبه أن يطيع . هو تقليد جرى عليه العرف والناس . ولكنه
في هذا الشهر قليل الدخل تحتل الميزانية فهل يخرج على التقاليد ؟
كلا . . . ليتكرم . . . وإذا لم يجد المال فليستدق نفقات الكرم
وليتورط إلى أعماق أذنيه في الديون . . . وإن يهيمه شيء . . .
إن يهيمه إفلاس يهدده ولا إملاق يدمره ما دام قد أرضى صوت
التقاليد . وهكذا يصبح الإنسان عبدا ذليلا خاضعا لسلطان
التقاليد

إن ضرر التقاليد يأتي من التثيد التام بمخاطيرها . . . من
تقيدها والتحكك بها والخضوع التام لها . ولكن أي ضرر في
ذلك ؟ ولم لا نتمسك بها ونخضع لها ما دامت كما ذكرنا
« الخلاصة النهائية لمجهود الأجداد » ؟ ولابد من وجود سبب
رئيسي يؤدي إلى هذا الخضوع وذلك الاستمساك . إن هذا
صحيح ولكن التقاليد تحتوي إلى جانب ذلك الخير على شر كثير ؛
ولكن كيف جاءها ذلك الشر ؟ إن تفسير ذلك من البساطة
يمكن . لقد جبل الإنسان على المباهاة بعلمه ومداراة جهله ونظر
في الحياة فنا استطاع معرفة أسبابه من غوامض شؤونها ومظاهرها ،
بادر إلى ذكره في الحال ، وما لم يستطع عز عليه أن يكشف عمله
جهله ، وتظاهر كمادته بالعلم والمعرفة وأخذ يحتقر له من
الأسباب والعلل ما يوم الفير بأنه بكل شيء عليم . كان الرض

لا تزال تحيا وتميش حتى اليوم سرءاء في المجتمع البدائي أو المجتمع
الذي وصل إلى أرقى درجات الحضارة والتقدم . هي ما لم يفرضها
المجتمع فرضا على أفراد الناشئين وعلى هؤلاء تقبلها في خضوع
واستسلام دون مناقشة أو كلام ، لا لشيء إلا لأنها تقاليد واجبة
التقديس . إطاعة الكبير ونوقيره وإطعام القريب وإيوؤه من
بين الأمثلة المدبدة على التقاليد السائدة في مجتمعنا الإنساني
بوجه عام . واقعد انسع سلطان التقاليد فأصبحت ولها في كل
ميدان سلطان . : وأي سلطان ؟ هي في القرية غيرها في المدينة
وهي في مدينة غيرها في الأخرى ، وتجددها تظهر في اللبس وفي
المادات وفي الأخلاق بين جميع الأمم تجددها ، وفي مختلف الطبقات
تشاهدها . لذلك لا تعجب إذا وجدت أنها داخل جدران المدرسة
بطبيعة الحال . بل يمكن القول أن عملية التربية بمد أن سارت
على الطريقة المنطقية قد أصبحت هي نفسها تقليدا متبعا . وهنا
يمكن لنا أن نتساءل . وما السر في وجود التقاليد ؟ الواقع أن أي
تقليد لم ينشأ إلا نتيجة لخبرة عملية مارسها الإنسان على الطريقة
الطبيعية . شاهد الإنسان غيره وقد أصبح كبيرا مسنا
في حاجة إلى احترام الناس ومعونتهم وتصور حاله لو أصبح مثله
عند ذلك أيقن أن احترام الكبير فيه احترام للجميع ووقاية من
التحقير على يد الصغير . لذلك تمسك الإنسان بهذه الفكرة ،
فكرة احترام الصغير الكبير وجعلها تقليدا أحاطه — وهو
بلقها للصغار الذين لا يملكون عن سر حكمتها شيئا — بهالة من
التقديس وذلك حتى يضمن بقاءها والعمل بها . وهكذا غدت
تقليدا يحافظ عليه أفراد المجتمع . ولذلك يمكن القول أن من
الممكن أن نرد كل تقليد ظهر في أي مجتمع من المجتمعات إلى
ظروف خاصة دعت أولا إلى وجوده وأدت ثانيا إلى بقاءه كان
تكون له أهمية حيوية بالنسبة لحياة المجتمع الذي نشأ فيه . إن
السكرم عند البدوي في البيداء هو تقليد جيوى ضرورى عليه
البيئة الصحراوية . ولقد نمت التقاليد وتنوعت بنمو المجتمع
الإنساني وتحضره

ولكن لم نوافق على أن تصبح التقاليد نفسها أهدافا تربوية

أعظم تأييد

لقد قيدت التقاليد التربية حين قيدت الحرية، حرية العقل
الإنسانى فى التفكير الحر المستقل . . حين قدمت تفسيراتها
الحاططة الحيايية التى لا تمتشى مع العقل ثم طالبت الإنسان باعتناقها
والإيمان بها والدفاع عنها - وأغفل العقل إذا اعترض والتفكير
إذا قاوم - أليست تقاليد الآباء والأجداد ؟

حقا لقد لعبت التقاليد دورها التربوى الخطير خلال التاريخ ؛
فهى التى سيطرت داخل المدرسة عن طريق الطريقة المنطقية ؛
تلك الطريقة التى وطدت نفوذها وسلطانها حتى أصبح من
المعتاد مثلا أن يطالب التلميذ بحفظ هذا وترك ذاك دون أن يعلم
السبب فى ضرورة حفظ هذا أو ترك ذاك

لم يقبل العقل الإنسانى الخضوع لديكتاتورية التقاليد ،
فكان أن نار وتذمر واندفع يحطم تلك العبادة . ألا يتجلى ذلك
فى مختلف الحركات الكبرى والثورات الفكرية التى قام بها
كبار الفلاسفة والمفكرين خلال المصور ؟ نعم يتضح ذلك
جليا فى كثير من المواقف . فى موقف أخناتون خلال التاريخ
القديم ، وفى قيام الكثيرين من كبار المصلحين فى الدين
المسيحى وفى الإسلام . . فى مارتى لوتر وفى جمال الدين . ولكن
بالرغم من قيام الكثير من هذه الحركات لهدم أصنام التقاليد
أنها غدت بدورها وقد حلت محل التقاليد . ويتجلى ذلك فى
التعاليم الدينية بوجه خاص ؛ ولا سيما حين قام المتأخرون من
رجال الدين وأخذوا خلاصة التعاليم والحكم وقاموا بترتيبها
وتنسيقها ؛ تاركين الظروف التى دعت إليها ؛ أو بسبابة أصبح قاموا
بدرسون الدين ويطبقونه على الطريقة المنطقية تاركين الطريقة
النفسية الطبيعية فى تعليمه ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت
تعاليم الدين مسيحية كانت أو إسلامية ، وقد اندمجت فى التقاليد
بل واختلطت بها اختلاطا تاما ولم يتورع رجال الدين عن
التمسك بمحرفيتها ، ووقفوا حراسا على قدسيتها . ومن طريق هذا
السجاس المقدس من التقاليد الدينية ، استطاعوا إقامة تلك
الديكتاتورية الدينية التى كانت أهد وأقسى من ديكتاتورية

ظاهرة غامضة بالنسبة للإنسان الأول . ولا تزال ظاهرة المرض
غامضة لدى الكثير من المجتمعات البدائية . هم يحفلون أسبابه
كما كان الإنسان الأول . ليملاوه إذن بمختلف الملل
والأسباب بدلا من الاعتراف الصريح بالجهل التام . هو لمة
من الله ونعمة

فإذا كان المريض صالحا طبييا لا يستحق اللمة كان المرض
فى هذه الحالة امتحانا واختبارا . وهكذا تحير التقاليد على هذا
النوال . وفى هذا يكن الخطر . ذلك أن التقاليد - بتفسيرها
الخطأى - لكل ما هو مجهول غامض - تقفل باب التفكير أمام
المفكرين ، بل تحول بينهم وبين العمل لمعرفة المال الحقيقية
والأسباب المجهولة للأواهر الغامضة . إن حقيقة المرض بطبيعة
الحال ليست فى كونه نعمة أو نعمة ؛ بل فى تلك الجرائم الحية التى
اكتشف العلم الحديث بعض أحوالها ولا يزال يجاهد فى سبيل
اكتشاف ما خفى عليه من أمورها . ألم يكن هذا التفكير العلمى
أول خطوات التقدم العلمى فى سبيل التخلص من شبح الكثير
من الأمراض ؟

حقا إن التقاليد بقدسيها وديكتاتوريتها وجودها وادعائها
سلاح قتال بل سم زعاف لوتناولته لتريه لأوردها موارد الهلاك .
قد تنفع التقاليد فى مبدأ ظهورها ؛ ولكن مضى الزمن وتغير
الظروف والأحوال سرعان ما يظهر عيوبها وخطرها . إن التقاليد
دائما أبدا تأبى إلا أن تقف حجر عثرة فى سبيل كل تفكير حر
منتج مبتكر . التقاليد هى الحاجز المنيع أمام رقى المجتمع وتقدمه .
هى العقبة الكؤود . هى السلاسل والأغلال . . هى القيود
الحديدية . . . كم من عقول حجتها التقاليد فتحجرت ، وآمنت
بالتقاليد فافكرت . إن المجتمع الخامد الهادى . . النائم ليس
نهار ؛ الساكن سكوت العدم والراقد رفود الموت ، هو المجتمع
الذى يخضع خضوع المبد للذليل لتقاليد . حقا كلما ازدادت
قوة التقاليد انحط الشعب رضاء ، وكلما ضعف سلطانها أو زال
تقريبا ازداد تقدم الشعب ورقية . إن نظرة واحدة إلى الصين
تقابلها نظرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية تؤيد هذه الحقيقة

قيودها وإحلال الحرية وتوطيد دعائمها محلها

ويتضح من ذلك العهد السريع أن رسالة الربى يجب أن
تتجه إلى العمل بالطريقة النفسية ونبذ الطريقة المنطقية، أو بمباراة
أصح في القضاء على ديكتاتورية التقاليد وإقامة قواعد الحرية
وهنا يحق لنا أن نقاسم عن معنى الحرية . . . تلك التي
يجب على الربى أن يعمل من المحافظة عليها بعض أهداف رسالته
الكبرى في الحياة ١٢

ذلك هو موضوع المقال القادم بإذن الله

كمال السيد درويش

ليسانس الآداب بائناز - دبلوم معهد التربية العالي

مدرس بالمرمل الثانوية

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى
للرحلات الثانية من كتاب

رسالة

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر في باكستان

تتم كل مجلد ثلاثون قرشاً عدا أجرة البريد

والجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة

التقاليد الاجتماعية المادية . وقد امتازت المصور الوسطى بتلك
الديكتاتورية الدينية المتحكمة . وبقدر شدة الضغط الذى عاناه
المجتمع ذلك الحين ، بقدر ما تولد الانفجار قويا شديدا . ذلك
الانفجار الذى يتمثل في انطلاق التفكير الحر الذى أنجبه أول
ما أنجبه إلى نفس تلك الأغلال والقيود . قام مارتى لوتر بمحتج ،
وانفصل أنصاره عن الكنيسة الكاثوليكية فقتلاه اليسوعيون
بحركة إصلاح ولذلك كانوا أقرب إلى رضا المجتمع . حدث هذا
في المجتمع المسيحى بينما اشتدت ظاهرة التصوف في المجتمع
الإسلامى ، وكانت حركة التصوف كحركة مارتى لوتر ترى إلى
التحرر من سيطرة التقاليد الدينية بنبذها وعدم التقيد بها ،
كذلك وجدت في المجتمع الإسلامى وكان إصلاحية لم تلجأ إلى
نبذ التقاليد الدينية دفعة واحدة بل إلى تنقيتها وتثبيت الصالح
منها ، وقد قامت هذه الحركات على يد كبار المصلحين من السنيين
كأبن تيمية وغيره الذين قاموا بدور شبيه إلى حد كبير بذلك
الدور الذى قام به اليسوعيون . لقد كانت هذه الحركات في كل
من المجتمعين المسيحى والإسلامى ، ترى إلى التحرر من سيطرة
التقاليد العمياء ، لا من طريق نبذها واحتقارها وإنكارها ، بل
عن طريق فهمها وبث الروح فيها ، أو بمباراة أصح عن طريق تطهيرها
وتعليمها بفهم الظروف أو الدواعى التى أدت إليها ، أى بالسير
وفق الطريقة الطبيعية النفسية . وهكذا ظل المجتمع الإنسانى
خاضعا لسلطان التقاليد ، يتخلص من احتلالها البغيض حينما
ليقع في أحيلها ثانيا ، سواء باسم الدين أو باسم السيامة . وبوضع
ذلك التخطيط بجلاء تاريخ الجزء الأخير من المصور الوسطى
حتى مطلع المصور الحديثة ، ذلك الجزء الذى يمثل بحق تأرجح
المجتمع بين ديكتاتورية التقاليد وبين رد الفعل الذى يحدث عادة
متى تحرر المجتمع من كل شئ ونبذ كل قيد . . . متى تذوق
الحرية المطلقة

حقا إن النهضة الأوربية ثم جهود جاك جاك روسو ثم
جهود أعلام التربية في العصر الحديث ما هى إلا بعض مراحل
الكفاح ضد التقاليد ، ما هى إلا حركات ترى إلى التخلص من